

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧١ - سُورَةُ نُوحٍ

عليه السلام

قال المهاجمي: سميت به لاشتمالها على تفاصيل دعوته وأدعيته . وهي مكية . وآياتها ثمان وعشرون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢] (قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

[٣] (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا)

[٤] (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » يعنى عذاب الطوفان « قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » أى يغفو عنها . و (مِنْ) إما مزيدة ، أو تبعية . وهو ما وعدهم العقوبة عليها . وأما ما لم يعدهم العقوبة عليها ، فقد تقدم عفوه لهم عنها . أو هو ما سبق ، فإن الإسلام يجب ما قبله « وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو أقصى ما قدره بشرط الإيمان . أى فلا يعاجلكم بعذاب غرق أو نحوه . « إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ » أى الذى كتبه على من كذب وتولى « إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العلم والفضل لَا نَبْتُمْ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥] (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا)
 [٦] (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا)
 [٧] (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأُصْغِتُوا)
 ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)
 [٨] (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا)
 [٩] (ثُمَّ إِنِّي أَغْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)
 [١٠] (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)
 [١١] (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)
 [١٢] (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)
 [١٣] (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)
 [١٤] (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)

« قَالَ » أى نوح بعد أن بذل غاية الجهد ، وضاعت عليه الحيل ، فى تلك المدد الطوال ،
 « رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي » أى إلى التوحيد والعمل الصالح « لَيْلًا وَنَهَارًا » أى دائماً بلا فتور
 ولا توان . « فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا » أى من الحق الذى أرسلتنى به « وَإِنِّي
 كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ » أى إلى الإيمان « لَتَغْفِرَ لَهُمْ » أى بسببه « جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ »
 أى سدوا مسامعهم من استماع الدعوة « وَأُصْغِتُوا ثِيَابَهُمْ » أى تغطوا بها من كراهة النظر
 إلى وجهه من ينصحه فى الدين « وَأَصْرُوا » أى على الشر والكفر « وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا »
 أى تعاضموا عن الإذعان للحق ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة « ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ

جَهَارًا* ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا» أى دعوتهم مرة بعد مرة، على وجوه مقنوعة ، ما بين مجاهرة وإظهار بلا خفاء، وما بين إعلان وصياح بهم، وما بين إسرار فيما بيني وبينهم فى خفاء . وهذه المراتب أقصى ما يمكن للامر بالمعروف ، والناهى عن المنكر . « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى سلوه العفو عما سلف بالتوبة النصوح « إِنَّهُ وَكَانَ غَفَّارًا » أى لذنوب من تاب وأناب . « يُرْسِلِ السَّمَاءَ » أى المطر « عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا » أى متتابعاً . « وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ » أى فيكثرها عندهم « وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا » أى لسقيا جناتكم ومزارعكم . « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » أى لا ترون له عظمة ، إذ تشركون معه ما لا يسمع ولا يبصر . فنفى الرجاء مراد به نفي لازمه ، وهو الاعتقاد، مبالغة . وجوز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف ، أى ما لكم لا تخافون عظمة الله . ومنه قوله (١) :

* إِذَا لَسَعْتَهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا *

قال الشهاب : وهو أظهر .

(١) قاله أبو ذؤيب الهذلي ، من قصيدته التى مطلعها :

أَسَاءَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تُسَائِلِ عَنِ السَّكَنِ أَمْ عَنْ عَهْدِهِ بِالْأَوَائِلِ ؟
السكن : جمع ساكن وهم أهل الدار وسكانها من يهوى - أى يرتفع إليهم ويريدهم ،
ومنه قوله تعالى : فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ - والمسكن : المنزل نفسه .
ويروى بيت الشاهد هكذا :

إِذَا لَسَعْتَهُ الدَّبْرُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ
قال : وربما أنشدت * وخالفها * وقوله : لم يرج لسعها أى لم يخش لسعها . والنوب :
التي تنوب ، تنجيء وتذهب .

انظر الصفحة رقم ١٤٣ ، من ديوان الهذليين ، القسم الأول .

« وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » أى تاراتٍ ، ترابًا ثم نطفًا ثم علقًا ثم مضغًا ثم أجنةً ، وهكذا طوراً بعد طور . أى ومقتضى علم ذلك شدة الرهبة من بطشه وأخذه ، لعظيم قدرته . هذا فى أنفسكم . وهكذا يستدل على باهر عظمته ، وقاهر قدرته من آياته السكونية . كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا)

[١٦] (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا)

[١٧] (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)

[١٨] (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)

[١٩] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا)

[٢٠] (لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)

« أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا » أى يزيل ظلمة الليل ، وينير وجه الأرض . « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » أى أنشأكم منها . « ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا » أى للحساب والجزاء . « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا » أى تستقرون عليها وتمهدونها . « لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » أى طرقاً مختلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَ

إِلَّا خَسَارًا)

[٢٢] (وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا)

[٢٣] (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)

[٢٤] (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا)

[٢٥] (بِمَا خَطِئْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا)

« قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْني » أى خالفوا أمرى وردوا على ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد ، « وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا » أى رؤساءهم المتبوعين ، أهل المال والجاه ، المعرضين عن الحق ، الذين غرتهم أموالهم وأولادهم ، فهلكوا بسببهما ، وخسروا سعادة الدارين .

« وَمَكْرُؤًا مَكَرًّا كُبَّارًا » أى متناهياً كبره ، فإن (الكبار) أكبر من (الكبير).

« وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ

وَنَسْرًا » قال قتادة : كانت آلهة تعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك .

قال : فكان (ود) لـكـب بدومة الجندل ، وكانت (سواع) لهذيل ، وكان (يغوث)

لبنى غطيف من مراد بالجرف ، وكان (يعوق) لهمدان ، وكان (نسر) لذى الكلاع من

حمير .

وقال (فى رواية) : والله ما عدا - أى كل منها - خشبة أو طينة أو حجراً .

وقال ابن جرير^(١) : كان من خبرهم - فيما بلغنا - من محمد بن قيس قال : كانوا قومًا

صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون

بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصورهم . فلما ماتوا وجاء آخرون

دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وروى البخاري^(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب ، بعدُ : أما (ود) ، فكانت لكب بدومة الجندل ، وأما (سواع) فكانت لهذيل ، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبني غُطَيْف بالجرف عند سبا ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان ، وأما (نسر) فكانت لمحير لآل ذى الكَلَع : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ ، عبدت .

تنبيهات :

الأول - قال الرازي : في انتقالها عن قوم نوح إلى العرب . إشكال ، لأن الدنيا قد خربت في زمان الطوفان ، فكيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت إلى العرب . ولا يمكن أن يقال إن نوحاً عليه السلام وضعها في السفينة وأمسكها ، لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها ، فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها في السفينة سعيماً منه في حفظها؟ انتهى كلامه .

ونحن نقول : إن جوابه بديهي ، وهو أن انتقالها إلى العرب بواسطة نقل أحوال قوم نوح وأبنائهم وعواندهم ، على السنة الرجل والسَّمَار ، لأن سيرة القرن المتقدم في العصر المتأخر ، وسنة الخالف أن يؤرخ السالف . وجلّ أن النفس أميل إلى الجهل منها إلى العلم ، لاسيما إذا زين لها المفكر بصفة تميل إليها ، فتكون ألصق به . وهكذا كان بعد انقراض العلم وحملته ، أن حدث ما حدث من عبادتها ، كما أشارت إليه رواية ابن عباس عند البخاري : حتى إذا هلك أولئك ، وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ ، عبدت . وعجيب من الرازي أن لا يجد مخرجاً من سؤاله ، وهو على طرف الثمّام .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧١ - سورة نوح ، ١ - باب ودّاء ولا سواعاً ولا يغوثَ ويعوقَ ، حديث رقم ٢٠٦٦ .

الثاني - قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : حكى الواقدي قال : كان (ود) على صورة رجل ، و (سواع) على صورة امرأة و (يفوث) على صورة أسد ، و (يعوق) على صورة فرس ، و (نسر) على صورة طائر . وهذا شاذ ، والشهور أنهم كانوا على صورة البشر ، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار في سبب عبادتها . انتهى .

الثالث - قال ابن القسيم في (إغاثة اللهيان) أول ما كاد به الشيطان عبادة الأصنام ، من جهة المكوف على القبور ، وتصاوير أهلها ، ليتذكروهم بها ، كما قص الله سبحانه قصصهم في كتابه فقال : (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ..) الآية .

ثم قال : وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم : فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتي الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم ، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ، ولهذا لعن^(١) النبي ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرر ، ونهى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل^(٢) ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً ، وقال^(٣) : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وأمر بتسوية القبور ، وطمس التماثيل ، فأبى المشركون إلاخلافه في ذلك كله ، إما جهلاً ، وإما عناداً لأهل التوحيد ، ولم يضرهم ذلك شيئاً إلى آخر ما ذكره رحمه الله .

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٦٢ - باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، حديث رقم ٢٨٥ ، عن عائشة .

وإلى الحديث الذي أخرجه كذلك في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٧١ - باب بناء المسجد على القبر ، حديث رقم ٢٨١ ، عن عائشة أيضاً .

(٢) يشير إلى الحديثين اللذين رواهما مسلم في صحيحه في : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث رقم ٩٢ عن فضالة بن عبيد ، و ٩٣ عن علي بن أبي طالب .

وقوله تعالى: «وَقَدْ أَضَلُّوا» أى: الرؤساء «كثيرون» ، أى خلقاً كثيراً ، أو الأصنام كقوله تعالى^(١): «رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ» . «وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا» أى خذلانا واستدراجا . وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم .

قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، وتعليل الدعاء عليهم به «تَمَمَّا خَطِئْتَهُمْ» أى من أجلها «أَغْرِقُوا» أى بالطوفان «فَادْخُلُوا نَارًا» أى أذيقوا به عذاب النار «فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا» .

قال الزمخشري : تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله ، وأنها غير قادرة على نصرهم ، وتهكم بهم ، كأنه قال فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله ، كقوله تعالى^(٢): «أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا» .

وقال الرازي : لما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات ، بطل القول بالوسائط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)

[٢٧] (إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)

[٢٨] (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا)

«وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» أى أحداً .

قال ابن جرير^(٣): يعنى بـ (الديار) من يدور فى الأرض فيذهب ويحى فيها ، وهو (فيما) من الدوران ، ديوارا اجتمعت الياء والواو ، فسبقت الياء الواو وهى ساكنة ، وأدغمت الواو فيها ، وصيرتا ياء مشددة . والعرب تقول : ما بها ديار ولا عريب ولا دوى ولا صافر ولا نافخ ضمة

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ » عن طريق الحق . « وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » قال أبو السعود : أى إلا من سيفجر ويكفر . فوصفهم بما يصيرون إليه ، وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه ، من أن الدعاء بالاستئصال ، مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن ، منكر ، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم ، بعد ما جرّبهم ، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة .

وقال بعضهم : ملّ نوح عليه السلام من دعوة قومه وضجر ، واستولى عليه الغضب ، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم ، وحكم بظاهر الحال أن المحجوب الذى غلب عليه الكفر لا يلد إلا مثله ، فإن النطفة التى تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة ، وتترى بهيأتها المظلمة ، لا تقبل إلا نفساً مثلها ، كالبنذر الذى لا ينبت إلا من صنفه وسنخه . انتهى .

« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » قال ابن جرير^(١) : أى رب اغفر عني ، واستر على ذنوبي وعلى والدي ، « وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا » قال ابن جرير^(١) : أى ولمن دخل مسجدي ومصلاي ، مصلياً مؤمناً بواجب فرضك عليه . وقيل : بيتي منزلي . « وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا » أى هلاكاً وخساراً .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .